

الخطاب المقدماتي في التراث المكونات والأنواع

● رشيدة عابد

الملخص:

تتميز المؤلفات في التراث الإسلامي بمختلف مجالاتها: الأدبية، النقدية، العلمية...بضوابط منهجية وعلمية سار عليها المؤلفون، وتكررت في أعمالهم بشكل ملفت للنظر، حتى باتت من الثوابت المعرفية في مناهجهم العلمية في التأليف، ومن بين هذه الثوابت "الخطاب المقدماتي"، الذي يصدر به المؤلف عادة كتابه.

تسعى هذه الدراسة للبحث في مكونات هذا الخطاب وأنواعه، من خلال نموذج مقدمات كتب ابن قبيبة الدينوري (213-276 هـ)، الذي عرف باحتفائه الجم، وعنايته الفائقة في صياغة مقدماته، كما تتوخى هذه الدراسة إثبات الفرضية التي ترى في الخطاب المقدماتي جزءاً لا يتجزأ من الكتاب في التراث الإسلامي، وليس مجرد نص مواز له، كما توصلت الدراسة إلى أن المقدمة في كثير من الأحيان تجاوزت وظيفة الابتداء والتمهيد لموضوع الكتاب، إلى مجال أوسع هو العلم أو الحقل المعرفي الذي ينتهي إليه، وهو ما عرف بمقدمة العلم.

Summary :

Books of Islamic heritage, in their different fields: literature, critical and scientific..., are characterized by methodological and scientific norms which were followed by the writers. These norms were so repeated in their works that it became constant knowledge for their scientific methods of writing. Among these constants « the prefatory speech » included by the writer generally at the beginning of his book.

This study aims to find the components and types of this speech through the model introductions books of Ibn Kaiba EDDAINOURI (213-276 of the Hegira), who was known by the attention he gave to the writing of his introductions. Also, this study plans to prove the hypothesis that considers the prefatory speech as part of the Islamic heritage book, and not only as a parallel text. Otherwise, the study resulted in the introduction that often exceeded the function of starting and introducing the book subject, to a wider field, namely:

● رشيدة عابد، استاذ مساعد أ، كلية الآداب و اللغات، جامعة البويرة.

science or field of knowledge to which it belongs. This is what is known by the introduction of science.

مقدمة:

إن المتأمل في المؤلفات التراثية بمختلف مجالاتها: الأدبية، النقدية، العلمية...، سيلاحظ دون شك أن ثمة ضوابطاً منهجية وعلمية سار عليها المؤلفون، وتكررت في أعمالهم بشكل ملفت للنظر، حتى باتت من الثوابت المعرفية في مناهجهم العلمية في التأليف، ومن بين أهم هذه الثوابت الخطاب المقدماتي الذي يسترعي النظر ويثير الاهتمام عند كل من تتوق نفسه لمعرفة أسرار وخبايا طرق ومناهج التفكير ومن ثم التأليف في الثقافة العربية الإسلامية.

وقد حظي هذا الخطاب بالاهتمام في النظريات الغربية، ولعل أهم من نظر له الباحث الفرنسي جيرار جينيت Gérard Genette تحت ما أطلق عليه بالموازيات النصية والاعتبات النصية والنصوص المصاحبة والمكملات¹... الخ، وقد اهتم الباحثون في هذا المجال بالمقاربة بين الجهود العربية حول الخطاب المقدماتي تنظيراً وتطبيقاً، وبين الصياغة النظرية الغربية مما جعلهم يخرجون بنتائج أقل ما يمكن القول فيها أنها مثمرة فقد فتحت آفاق البحث والاستقصاء، ولهذا سنبداً بعرض أهم ما توصلت إليه الدراسات السابقة ثم نعرض على نماذج من مقدمات المؤلفات التراثية، قصد الإبانة عن أهم مكوناتها وأنواعها.

أولاً: التنظير للخطاب المقدماتي التراثي:

1- قديماً:

لا يمكن الحديث عن التنظير للخطاب المقدماتي في معزل عن نظرية شاملة للكتابة والتأليف، ليس هذا مكان استقصائها أو الإلمام بها، لكن حسب هذا البحث أن ينظر في هذه الجزئية المتعلقة بقوانين كتابة المقدمات، فمن أهم الآراء التي نجدتها مبنوثة في كتب المتقدمين ما قدمه الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان، إذ يقول: "ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير.."²، وهو ما سيعبر عنه المقريزي ويعرف بالرؤوس الثمانية، حيث جاء في كتابه المواعظ:

"إعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أي صناعة هو

1- ينظر مقترحات ج جينيت في كتابه *seuils, Palamsestes*

2- الجاحظ، الحيوان، تج: عبد السلام هارون، ج1، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2015، ص

وكم فيه من أجزاء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه"¹. و على هذا الأساس كان القدماء يصدرن أعمالهم بخطب² أو مقدمات يشيرون فيها إلى هذه المكونات التي باتت من ثوابت الخطاب المقدماتي.

كما يورد أبو القاسم الكلاعي في كتابه إحكام صنعة الكلام مبادئ جد هامة في الترسل والتأليف، وفي معرض حديثه عن أجزاء الرسالة ومكوناتها، يقدم لنا نظرية في الكتابة وتقنياتها من منظور بلاغي جمالي، فهو يخصص فصلا من كتابه للحديث عن الكتابة وأدائها، وما يتعلق بها من أسبابها³، حيث شروط الكتابة ومستلزماتها، إلى أن يصل إلى المكونات التي تدخل في بنية الرسالة (النوع النثري الأثير لديه) بشكل خاص، والتأليف بشكل عام، وفي هذا يقول: " يقال عنوان وعلوان، والجمع علاوين. وقال أبو علي الفارسي: يقال عنوان الكتاب، وعلونته، وعلينته، وعلينته. وزاد غيره (...) وأصل العنوان ما دل على الشيء"⁴، ولا يقف عند هذا بل يتجاوزه إلى العناصر الأخرى التي تشكل بطريقة ما مقدمة الكتاب وهي: الاستفتاح الذي يكون عادة بالبسملة والحمدلة كما هو متعارف عليه وفق القاعدة النبوية التي تقول: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبت"، وهكذا يبدو الموجه الإسلامي أحد ركائز صياغة نظرية الخطاب المقدماتي في التراث.

2- حديثا:

إذا كانت آراء القدماء حول المقدمة قد جاءت مبعثرة في ثنايا المؤلفات، فإن المحدثين قد خصصوا كتباً وبحوثاً ورسائل أكاديمية كاملة للحديث عن أصول ومناهج التأليف وإعداد البحوث، ولم يكن عملهم هذا من وحي عقولهم فقط، بل اعتمدوا فيه على ما قدمه السابقون إضافة إلى ما قدمته مناهج البحث الحديثة من طرائق ومبادئ لها علاقة وطيدة بالخطاب المقدماتي.

ومن بين أهم الدراسات التي استرعت اهتمامنا ونحن بصدد البحث في هذا الموضوع، هي الدراسة التي تقدم بها الباحث عباس ارحيلة والموسومة بـ مقدمات الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، إذ يتجاوز فيها صاحبها مجرد الوصف إلى محاولة التحليل ومن ثم التأويل لظاهرة الخطاب المقدماتي، ودورها الفعال في وجود الكتاب وتبلور المؤلفات ككل في الثقافة الإسلامية. فرؤية الباحث نابعة من إيمان عميق بتميز وخصوصية المقدمة في

¹- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 1، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 1987. ص 03.

²- تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن مصطلح خطبة الكتاب أو خطبة المؤلف كان مرادفاً أثيراً عند القدماء لما نطلق عليه اليوم مقدمة.

³- أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح: رضوان الداية، دار الثقافة، لبنان، 1966. ص 39.

⁴- نفسه، ص 51.

التراث الإسلامي، فهو يشير في مقدمة كتابه إلى الدراسات السابقة حول المقدمات بما في ذلك الخطاب التنظيري الغربي (أعمال جيرار جينيت) وينتهي إلى قناعة راسخة باختلاف بين المقدمات التي قصدها جينيت وبين ما يعتزم دراسته، وفي هذا نقد وإحالة غير مباشرة على الدراسات العربية التي طبقت النظرية الغربية على مقدمات الكتب والتصانيف العربية، يقول معللاً موقفه هذا: «والخلاف الجوهرى بين هذا والمقدمة في التراث العربى؛ أن هذه تنتهى إلى مجال البحث والتصنيف، لا إلى مجال الإبداع، وهي لا تشكل نصاً موازياً مستقلاً بذاته، بل هي جزء لا يتجزأ من الكتاب، وسنرى كيف أنها تمثل الرأس من جسد الكتاب، وهي تنتهى إلى فضاء مغاير، وترتبط بتصورات من حضارة قوامها دين ينظم حركة وجودها، ولغة يقوم عليها خطاب الوحي، وتشكل أساس الثقافة في حضارة الإسلام، وعلى طرائقها يتحقق الأداء الفني في أصناف القول في تلك الثقافة. وهي ثقافة لها سياقها الديني الخاص، وإشكالاتها المعرفية ولها رسوخ في مجال التأليف يتجاوز كل التقديرات، ولا تتحقق الذات المبدعة خارج ذلك السياق، ولا يمكن لها أن تضيف شيئاً إلى الرصيد الإنساني إذا كانت تجري في سياق غيرها. وإحساس المؤلف بقيمة ما أضافه إلى الرصيد الإنساني يتفجر داخل سياق مقدمات الكتب في حضارة الإسلام، وفي كل مكون من مكونات تلك المقدمات كما سنرى»¹.

يبدو واضحاً من النص أعلاه أنه لا يمكن الحديث عن خطاب ما إلا في سياق تشكله وتلقيه، ولهذا يعتبر الدين الإسلامي موجهاً رئيسياً من موجبات الكتابة وتشكل الخطاب المقدماتي.

وقد خصص الباحث في الفصل الأول من الكتاب للحديث عن مقدمة الكتاب في الثقافة الإسلامية من إحاطة بالخلفيات التي تقف وراء تكوينها ونشوء التأليف في حضارة الإسلام، والإلمام بمفهومها في التراث، مميّزاً بين مقدمة الكتاب ومقدمة العلم بقوله: «مقدمة العلم الإضافة هنا على معنى اللام، أي مقدمة للعلم؛ فكأنها خارجة عن العلم، فهي وسيلة يتدرج بها لإدراك حقيقة ذلك العلم في ذاته. فالمقدمة هنا ذريعة. ومقدمة الكتاب: الإضافة هنا على معنى: من؛ فهي جزء من الكتاب، كما أن مقدمة الجيش هي أجزائه؛ فإن مقدمة الكتاب هي أحد أجزائه، ومقدمة الكتاب هي طائفة من كلامه تتقدم أمام المطلوب لارتباط معناها به، وانتفاع بذلك المعنى؛ فهي مما يستعان به على المقصود»². وعلى الرغم من هذه الفروقات التي يحددها الشراح بين النوعين إلا أن الباحث يرى عدم انتفاء التكامل الحاصل بينهما.

أما في الفصل الثاني فيقدم مكونات المقدمات في كتب التراث الإسلامي، وقد استنبطها

¹ - عباس ارحيلة، مقدمات الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، المطبعة والوراقة الوطنية، ط 1، مراكش، 2003، ص 12.

² - نفسه، ص 67.

انطلاقاً من أنماط الخطاب الذي تحتوي عليه كما يلي:¹

- 1- خطاب هو ديباجة الكتاب الإسلامي
- 2- خطاب موضوعي عناصره ثابتة
- 3- خطاب موضوعي عناصره متغيرة
- 4- خطاب موضوعي/ذاتي
- 5- خطاب ذاتي
- 6- خطاب يشرك المتلقي في المسؤولية
- 7- خطاب تتخلله موضوعات عامة

وتبدو أهمية الدراسة في وقوف الباحث على تجريد هذه المكونات فقد أحصى منها ما هو ثابت وما هو متغير كما يبدو من خلال قوله: « وعناصر خطاب المقدمة منها ما هو ثابت، ومنها ما هو متغير تبعاً لطبيعة موضوع الكتاب. ومن هنا قسمت هذا الخطاب الموضوعي إلى ثلاثة أقسام: قسم يشتمل على عناصر الديباجة الإسلامية (البسمة- الحمدلة- التصلية) وقسم عناصره تكاد تكون ثابتة في جل ما اطلعت عليه من مقدمات كتب التراث (البعديّة/ أما بعد/ - عنوان الكتاب- موضوع الكتاب- التصميم- دعاء الاختتام) وقسم ثالث لا تستقر فيه تلك العناصر بصورة مطردة (أهمية البحث والغرض منه- اسم المؤلف- الأعمال السابقة في مجاله- ذكر المصادر المعتمدة المنهج)².

إن الوقوف على نظرة الباحث الدقيقة في تصنيف خطابات المقدمة إلى خطاب ذاتي وآخر موضوعي يجعلنا نستنتج أن الخطاب الذاتي يتصل بالأسباب والدواعي التي حملت المؤلف على وضع الكتاب، أي مقاصد المؤلف و إحساسه بالأهمية التي يكتسبها الكتاب، أما الخطاب الموضوعي فيتصل بمنهج المؤلف واستيعاب الأعمال السابقة في الموضوع مع نقدها كما يتميز بالأمانة العلمية، حيث يصرح المؤلف منذ المقدمة بنسبة الكلام إلى قائله، أما الخطاب الذي يشرك القارئ في المسؤولية، وقد تنوع بين التصريح والتلميح فتارة يخاطب القارئ مباشرة، وتارة يبين له الفائدة المرتقبة، وأخرى يدعو لليقظة و الانصاف... وفي النهاية يقدم المخطط التالي:³

ثانياً: مكونات المقدمة: الثابت/المتغير

1- الثوابت:

سننطلق في قراءتنا للخطاب المقدماتي في التراث من المقترحات السابقة، موضحين خصوصية النماذج التي سنعرض لها، وهي مقدمات ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ) الذي

- 1- نفسه، ص 82.
- 2- نفسه، ص 83.
- 3- نفسه، ص 173.

عاش في عصر يؤرخ له -عادة- باعتباره عصر ازدهار حركة التأليف وانتشار الكتاب في الدولة الإسلامية على اتساع رقعتها. فقد لاحظنا أن الرجل كان محتفيا بمقدماته، على تنوع تأليفه واختلاف مجالاتها (الشعر، النقد، الأخبار، الحديث، التفسير...) إلا أننا لا حظنا أن نقاط التقاطع بينها كثيرة على تنوعها واختلافها، وهكذا أردنا أن نرصد هذه الاختلافات والمتشابهات. وفيما يلي نبدأ بتعين أغلب ما تشترك فيه هذه المقدمات، والتي سنلخصها في الجدول التالي:

المكونات الثابتة/ عنوان الكتاب	عيون الأخبار	أدب الكاتب	الشعر والشعراء	المعارف	تأويل مشكل القرآن	غريب الحديث
الديباجة البسمة والحمدلة والدعاء	" الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين..." ¹	" أما بعد حمدالله بجميع محامده،	غائبة	غائبة	"الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب..." ⁴	"الحمد لله أهل الحمد ووليه، والهادي إليه والمثيب
" ونحن نسأل الله أن يحو ببعض بعضا..." ²	والثناء عليه بماهو أهله..." ³		التجاوز عن الزلة بحسن النية فيما دللت عليه وأجريت إليه التوفيق للصواب وحسن الثواب"	"أسأل الله به... وأسأله أن يشغلنا بذكره، ويلهجنا بشكره، وينفعنا بحب القرآن..." ⁵		
أهمية الكتاب والغرض منه	"فإن هذا الكتاب وإن لم يكن في القرآن... دال	"فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل	" وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء	"هذاكتاب جمعت فيه من المعارف ما يحق على	"أحببت ان أنضح عن كتاب الله و أرمي من ورائه بالحجج	" كنت زمانا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب

- 1- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، تج: منذر محمد سعيد أبو شعر، ج1، المكتبة الإسلامية، ط1، بيروت، 2008، ص 1.
- 2- نفسه، ص 14.
- 3- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تج: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، دط، بيروت، دت. ص 5.
- 4- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تج: السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث، ط3، مصر، 1973.
- 5- ابن قتيبة، غريب الحديث، تج: عبد الله الجبوري، ج 1، مطبعة العاني، ط1، بغداد، 1977. ص 147.

وبواعث تأليفه ومنهجه (خطاب موضوعي)	على معالي الأمور، مرشد لكريم الأخلاق... " وهذه عيون الأخبار نظمها لمغفل التأدب تبصرة..." ¹	الأدب ناكبين..." ² " فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره؛ جعلت له حظا من عنايي، وجزءا من تأليفي..." ³	الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب والنحو وكتاب الله عزوجل وحديث رسول الله (ص)..." ⁴	من أنعم عليه بشرف المتزلة وأخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة، وفضل بالعلم والبيان على العامة، أن يأخذ نفسه بتعلمه" ⁵	النيرة.. فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن" ⁶	الحديث، وأن الناظر فيه مستغن به، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة، فوجدت ما تركه نحو ما ذكره أو أكثر منه، فتابعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر.."
إعجاب المؤلف بكتابه مع بعده عن الهوى والعصبية (خطاب ذاتي)	"و إنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الأكلين" ⁷	" وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم، ولم يتقدم	" بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه..." ² " لم يقصر الله العلم	غائب	غائب	" أرجو أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال" ⁴

1- عيون الأخبار، ص 3.

2- أدب الكاتب، ص 5.

3- نفسه، ص 12.

4- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج 1، دار المعارف، دط، مصر، دت. ص

59.

5- ابن قتيبة، المعارف، تح: ثروت عكاشة، دار المعارف، ط 4، مصر، دت. ص 1.

6- تأويل مشكل القرآن، ص 23.

7- عيون الأخبار، ص 5.

			والشعر على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر"3	من الأداة إلا بالدواة"1		
خطاب موجه للقارئ (الاهتمام بالمتلقي)	" جمعت لك منها ما جمعت...." " وسنتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة...وإذا مر بك حديث فيه إفصاح...."5	" ونحن نحب لمن قبل عنا وانتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهدب أخلاقه..."6	" ولعلك تظن -رحمك الله- أنه يجب على من ألف مثل كتابنا..."7	" ولقد شرطت عليك تعلم ما في هذا الكتاب، وتعرفه، ولو أطلته وذكرت ما بك عنه الغناء أكثر دهرك أتعبتك وكددتك..."8	غائب	" وكرهت أن يكون الكتاب مقصورا على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السلف والفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب

- 2- الشعر والشعراء، ص 6.
- 4- غريب الحديث، 152.
- 1- أدب الكاتب، ص 12.
- 3- نفسه، ص 63.
- 5- عيون الأخبار، ص 5.
- 6- أدب الكاتب، ص 14.
- 7- الشعر والشعراء، ص 60.
- 8- المعارف، ص 7.

ويتمتع قارنه ويكون عوناً على معرفة... ²		" وأرجو أن أكون بلغت لك منه منية النفس..." ¹				
---	--	--	--	--	--	--

ملاحظات على ما جاء في الجدول:

-أول ما نلاحظه على هذه المكونات المتكررة أنها تمس الجانب المنهجي للتأليف، وتغلب الخطاب الموضوعي على الخطاب الذاتي؛
-ياب بعض المكونات في بعض مقدمات كتب ابن قتيبة، كشأن الدباجة التي غابت في كل من "الشعر والشعراء" و "المعارف" لا يعني إهمالها من قبل المؤلف، بل على الأرجح فقدت أثناء النسخ، فليس من المنطقي أن تهمل في مؤلفين وتذكر في كل المؤلفات؛
-التواضع الذي نلمسه عند المؤلف، على علمه وسعة اطلاعه؛
-المكونات الثابتة لا تسمح بملاحظة خصوصية المقدمة أو نوعها، لأنها تهتم بالمشترك والعام ولهذا ننتقل للبحث في المتغيرات.

2-المتغيرات:

إن الحديث عن المتغيرات، يجعلنا نقف على خصوصية كل مقدمة واختلافها مع المقدمات الأخرى، وهذا سيساعد لاحقاً على تصنيف مقدمات ابن قتيبة، حيث تتميز مقدمة "أدب الكتاب" عن مقدمة "الشعر والشعراء" و "تأويل مشكل القرآن" ...وهكذا، وعلى هذا الأساس سنعرض لكل مقدمة على حدة.

-مقدمة أدب الكاتب باعتبارها فاتحة للتأليف: لقد لفتت هذه المقدمة نظر المهتمين بالخطاب المقدماتي قديماً فوصفت بأنها "خطبة بلا كتاب"، وقد اتخذ هذا الحكم تأويلين؛ إما لأنها طالت واستفاضت حتى خرجت عما هو متعارف عليه من العناصر المشكلة للمقدمة في العادة، أو لأن الربط بين ما جاء فيها من مقاصد، وما تضمنته أبواب الكتاب يبدو في ظاهره متناقضاً، أو لنقل غير منسجم. والحقيقة أن هذا الكتاب هو بداية لمشروع سيكتمل في مؤلفات أخرى كعيون الأخبار والمعارف وغيرها، إذ يحيل ابن قتيبة على أدب الكاتب في مقدمة كتاب عيون الأخبار قائلاً: "وإني كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد، حين تبينت شمول النقص، ودروس العلم، وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب..."³ إلى أن يقول " فأكملت له ما ابتدأت، وشيدت ما أسست، وعملت له في ذلك

1- نفسه، الصفحة نفسها.

2- غريب الحديث، ص 151.

3- عيون الأخبار، ص 2.

عمل من طب لمن حب، بل عمل الوالد الشفيق للولد البر...¹، وعلى هذا الأساس تغدو المادة المعروضة في عيون الأخبار استكمالاً لما قدمه في أدب الكاتب، وهنا يمكن وصف مقدمة أدب الكاتب بمقدمة العلم، حيث يصوغ فيها آداب الكتابة وما يجب توفره من أخلاق وصفات لدى من يزاول هذه المهنة الشريفة يقول: "ونحن نستحب لمن قبل عنا واثم بكتبتنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول - شنيع الكلام ورفث المزح"²، كما اشترط على الكاتب أن يأخذ من كل علم بطرف؛ ومن جملة هذه العلوم: النحو وعلوم اللغة، والهندسة، والفلك، والفقه، والحديث، والأخبار..... وهكذا راح يقدم شروط الكتابة، التي هي جزء من شروط الكلام العربي³، كمرعاة أحوال المخاطبين (الذين يكتب لهم الكاتب)، ومن ثم معرفة مواطن الإيجاز ومواطن الإسهاب، وأنواع الكلام⁴.

-مقدمة الشعر والشعراء وقوانين الإبداع: إن كتاب الشعر والشعراء كتاب فريد في بابته بالنظر إلى العصر الذي ألف فيه، وما يصنع هذه الفريدة هو تلك المقدمة التي أفاض فيها الحديث عن منهجه في التأليف، حيث وضع معايير خاصة للانتقاء، هذه المعايير ستغدو ركائز لنظرية الشعر مع المؤلفات اللاحقة، يقول عن معيار اختياره لمجموعة من الشعراء: "فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن"⁵، كما يحدد ضروب الشعر أو أنواعه، استناداً إلى مشاكلة اللفظ للمعنى، فضرب منه حسن لفظه وجاد معناه⁶، وضرب حسن لفظه وحلا، فإن أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى⁷، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه⁸، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه⁹، وكل هذه الآراء ستتحوّل إلى قوانين تصاغ فيما سيمسى بعمود الشعر، النظرية النقدية الشعرية في التراث، وخاصة مع شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، كما

1- عيون الأخبار ، ص 3.

2- أدب الكاتب، ص 14.

3- الكلام العربي هو مصطلح استعمله سعيد يقطين للدلالة على الأدب بمفهومنا الحديث، تفاصيل أكثر ينظر: سعيد يقطين الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 1997.

4- يحدد ابن قتيبة هذه الأنواع بقوله: " والكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة؛ ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي: الأمر، والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر...." ص 7.

5- الشعر والشعراء، ص 63.

6- نفسه، ص 64.

7- نفسه، ص 67.

8- نفسه، ص 68.

9- نفسه، ص 69.

وقف على عملية الإبداع كيف تتم ومتى، حيث تحدث عن دواعي قول الشعر وأوقاته... وغيرها¹، وهو مما يدخل في باب ظروف إبداع النص وشروط إنتاجه.

-مقدمة عيون الأخبار وأنواع المتلقين: لاشك أن الحديث إلى القارئ والاهتمام بالمتلقي ومحاورته، من بين ثوابت الخطاب المقدماتي في التراث، وهو ما يشهد عليه مما تقدم (ينظر الجدول أعلاه)، ولكن ثمة خصوصية في مقدمة عيون الأخبار يتجاوز فيها ابن قتيبة مجرد التحوار مع القارئ، أو توجيه الخطاب نحوه، إلى تقديم مستويات للقراء وأنواع المتلقين الذين تصورهم وهو يؤلف هذا الكتاب، حيث يقول: " ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم؛ فوفيت كل فريق منهم قسمه، ووفرت عليه سهمه"². وانطلاقاً من هذه التصنيفات (طالب الدنيا/ طالب الآخرة)، (الخواص/ العامة)، (الملوك/ السوقة) يكون فهم هذا الخليط غير المتجانس من الأخبار التي أوردها المؤلف، فهو يهتم بالزاهد العابد، كما يهتم بالمرح العابث، وبالعالم وصاحب السلطان، ولكل نوع من القراء سجله الكلامي الذي يليق به.

ثالثاً: أنواع المقدمات:

تعتبر مقولة النوع مقولة تصنيفية، حيث تطرح إشكالية المعيار أو المكون الذي يمكن أن تصنف وفقاً له هذه المقدمات، وفي الدراسات التي بين أيدينا، نطلع على عدة تصنيفات للمقدمة، تقوم على معايير مختلفة، حيث يقدم الباحث عبد الرزاق بلال في كتابه مدخل إلى عتبات النص -دراسة في مقدمات النقد العربي القديم- التصنيف التالي³:

المقدمة الرسالة

المقدمة الحوار أو المناظرة

المقدمة الشعرية

المقدمة النقدية

ما يلاحظ على هذه التقسيمات أنها اعتمدت على تصنيف الخطاب المقدماتي انطلاقاً من النمط الخطابي، كما يقدم الباحث تقسيماً آخر عندما يشرع في دراسات مقدمات كتب النقد، ألا وهو المقدمة البسيطة، والمقدمة المركبة، وهذا معيار آخر للتصنيف، وهو الشكل. إن المقدمات التي بين أيدينا، تتوزعها عدة اعتبارات كما رأينا بالنسبة للمكونات التي

¹ قال دواعي قول الشعر: " وللشعر دواع تحت البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب" وعن حالات قوله: " ويقال أيضاً أنه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخضر الخالي". ص 78-79.

² عيون الأخبار، ص 4.

³ عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص (دراسة في مقدمات النقد العربي القديم)، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص 43 وما بعدها.

تميزها، فإذا أردنا أن نصنفها فإنه يبدو أن ثمة قسمين كبيرين هما ما اصطاح عليه المتقدمون بمقدمة العلم ومقدمة الكتاب.

مقدمة العلم: من خلال ما تقدم لاحظنا أن كلا من كتاب الشعر والشعراء، وأدب الكاتب يقدمان مدخلا للعلم الذي صنفا فيه، ولهذا يمكن عد مقدمة الشعر والشعراء مقدمة في علم الشعر وقوانينه، وكذلك الشأن بالنسبة لمقدمة لأدب الكاتب الذي يصوغ فيها ابن قتيبة شروط وأداب ممارسة الكتابة، ولهذا فيمكن اعتبارها مقدمة في صناعة الكتابة.

مقدمة الكتاب: رغم اشتراك كل مقدمات ابن قتيبة في كثير من المكونات، إلا أن كل مقدمة لها سمات خاصة، أو مقصدية تجعلها تختلف بعضها عن بعض، فإذا كانت مقدمات الكتب التالية: المعارف، عيون الأخبار، غريب الحديث، قد اعتمدت أسلوبا تمهيديا تلخيصيا بشكل متدرج واستقصائي، فإن ابن قتيبة اعتمد على أسلوب الحجاج والاستدلال في مقدمتي كتاب غريب الحديث، وكتاب تأويل مشكل القرآن، لأن هذين الأخيرين يتمحوران حول المقدس الذي كان يواجه في تلك الفترة هجوما من قبل الزنادقة والملحدن... وغيرهم، ولهذا نجد المؤلف شديد اللهجة حريصا على إقناع من يطلع على مقدمات مؤلفاته، باعتبارها عتبات يلج منها القارئ إلى الكتاب.

تماما نصل إلى أن الخطاب المقدماتي احتل مكانة متميزة في وعي القدماء، وهو ما جعل مؤلفا قديرا كابن قتيبة يجعله في مركز اهتمامه، ويكيّفه بحسب المقصد الذي يبتغيه من وراء التأليف، كما أن تعدد مجالات التأليف لديه جعلته يفتح على أنماط خطابية متعددة، وهو ما ساعد على تصنيفها، ولعل الأهم في كل هذا هو ذلك الخيط الرفيع الذي نلمسه في مقدماته، التي تذكر إحداها بالأخرى، مما يجعلنا نقول أن مؤلفات ابن قتيبة لا يمكن فهم أحدها منفصلا عن الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث، ط3، مصر، 1973.
- 2- الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج1، دار المعارف، دط، مصر، دت.
- 3- المعارف، تح: ثروت عكاشة، دار المعارف، ط4، مصر، دت.
- 4- أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، دط، بيروت، دت.
- 5- غريب الحديث، تح: عبد الله الجبوري، ج1، مطبعة العاني، ط1، بغداد، 1977.
- 6- عيون الأخبار، تح: منذر محمد سعيد أبو شعر، ج1، المكتب الإسلامي، ط1، بيروت، 2008.
- 7- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، القاهرة، 1987.

- 8- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ج1، المكتبة
العصرية، ط1، بيروت، 2015.
- 9- أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح: رضوان الداية،
دار الثقافة، لبنان، 1966.
- 10- عباس ارحيلة، مقدمات الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، المطبعة
والوراقة الوطنية، ط1، مراكش، 2003.
- 11- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص (دراسة في مقدمات النقد العربي
القديم)، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000.
- 12- سعيد يقطين الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1997.

